اثارة مشروع من جديد

الموهوبون

ومعاهدهم العلمية

للدكتورة نبيهة الحكيم

شغل الاذهان مشروع من المشروعات الجليلة ، التي ابتكرها رفعة علي ماهر باشا في مصر سنة ١٩٣٦ ، وهو « انشاء معهد علمي لأولاد الخاصة او الارستقراط » : وقد قامت ضجة حول ذلك المشروع حينئذٍ ، وكان من الناس المجد له وغير المجد . ولم يتم شيء فيه لقصر المدة التي تولى فيها رفعة رئيس الوزراء الحكم آنئذٍ . على أني اهتممت بالأمر بجملته ، وأعتقد انهُ لو تهيأت الظروف لانشاء ذلك المعهد، لأحدث إنشاؤه انقلاباً في عالم التربية بمصر، ولقام على مثاله معاهد للموهوبين من البالغين وفق كل فنّ وصنعة واختصاص مما يتفق وميولهم

وفي يقيني ان اختيار اسم المعهد كان أقوى سبول لهدم مشروعه ، لذا كان يحتاج الى دقة التسمية وإيضاح الغرض منهُ بحيث يدل على ما قصد به ، وقد دعاني كل هذا الى دراسة أنواع الفرد البشري ، وبنوع خاص دراسة الموهوبين

أما ومن المحتمل إثارة إنشاء هذا المعهد العلمي للموهوبين من جديد على الرغم من ظروف الحرب ، فسأذكر فيما يلي دراسة موجزة عن أنواع الفرد البشري ، ونبذة عن نشأة معاهد الموهوبين في العالم وتطوّرها لعلنا نفيد من ذلك شيئاً

(دراسة أنواع الفرد البشري) نعرف بالممارسة أنواعاً ثلاثة بارزة للفرد البشري : العادي ، والموهوب، والشاذ . وقد رأى الباحثون في علم الانسان — مظاهر اجتماعية — بين المجموع ، وميزوا فوارق قوية بين شخصيات الافراد وذكائهم

وأثبت المؤرخون ان بعض افراد جماعات المجتمع يتصف بمظاهر النبل والامارة ، وسمات التفوق ، وهذه دلت عليها نتائج اعمالهم الطيبة ، وأخلاقهم الحميدة

١ — أما الفريق العادي ، فهو الذي يتكوّن من أفراده سواد الشعب او الجماعة البشرية

٢ — والشواذ هم الفريق شبه المنبوذ ، نظراً لتنكب أفراده عن السبيل الطبيعي في الحياة لضعف عقولهم ، او اصابتهم بالعاهات كالصمم او الكساح او غير ذلك

٣ — أما ذوو المواهب او الموهوبون ، فكل ما نعرفه عنهم ، يرجع تاريخه الى التجارب العديدة ، والاختبارات الدقيقة التي أجريت في خلال العشرين السنة الاخيرة . فقد ظلت دراسة الموهوبين مرجأة ، وبقيت أحوالهم غامضة زمناً طويلاً ، بحيث لم نستطع الكتابة عنهم قبل ثلاث عشرة سنة ، ولا سيما ان الآلة التي استعملت في تلك التجارب ، كانت معقولة وعامة وقائمة على اصول معقدة حتى خاف الانسان استعمالها وعلى وجه التخصيص تلك التعبيرات التي استخدمت في تفسير الحالات الدقيقة ، مثل مسائل النباوة والقصور العقلي والتواكل عند بعض الافراد

أما التعبيرات التي استخدمت في الناحية الأخرى السارة ، مثل الذكاء ، والزعامة ، فقد ظلت في حيز الخرافات حتى السنوات القليلة الماضية

***

ولما كان الانسان أشد ملاحظة لما يؤلمه او يضايقه ، فان الحالات الشاذة المؤلمة : كما في حالة البله والعجزة والقاصرين ، وجّهت نظره اليها ، وجذبت عطفه عليها ، فكان لها نصيب موفور من تفكير البشر ، واشتغال بالهم بمسائلهم ، ولا غرابة في ذلك فقد اتفق هذا العمل وطبيعة ميولهم البشرية . وانهُ لما يذكر بالتقدير للموجة الانسانية الفجائية ، التي غمرت النصف الاخير من القرن الثامن عشر ، وظلت معظم القرن التاسع عشر ، هو أنها ساعدت بوادر تلك الميول الرفيعة ، وقوّت المشاعر الانسانية على الاخذ بيد هؤلاء البؤساء في الحياة . فأثرت كثيراً في انشاء المعاهد الجليلة الغاية ، السامية المقصد ، برغم كثرة تكاليفها ، وكانت مواطن الرحمة فضمت ضعيف العقل والماجز والكسيح والمجنون وغيرهم ممن تنكبوا عن الاتجاه الاجتماعي الصحيح في الحياة من كل صنف ، وعملت على تبرئتهم من شوائبهم

ولما كان قانون « محبة البشر » بعضهم بعضاً ، نصد به مبدئيًا محبة الانسان عموماً دون تمييز بين أنواعه ، فمن العبث الظن بأن محبة البشر للانسان النبي والاشفاق على الشرير مثلاً ، قد انتقص من قيمة هذا القانون . والواقع ان هذا الاتجاه عزّز من قيمته ، وأوضح من معناه ، فكانت نتائجه الى ذيوع الدعايات العاطفية المقبولة المقنعة الى اعتبار حقوق البشر في المواهب ، وحق الحياة ، بحيث لا ينقص من فضل أحد ولا يبخس من مراتب استحقاقه

وكان من آثار ذلك المجهود وتلك النتائج : تكملة نمو المشاعر البشرية الانسانية تكملة عملية فبذلت الاعانات لاقامة معاهد دراسة الاطفال الموهوبين فيما بعد اسوة بمعاهد انشواذ ، ولو لم تبلغ مبلغها بعد . وبفضل هذه المعاهد ومؤسسيها ، توصلنا الى معلومات نفسية مهمة في دراسة الاطفال ذوي المواهب ، والاخذ بيد البشرية جمعاء

﴿ بعض المعلومات عن دراسة الموهوبين ﴾ من المحاولات المبكرة المهمة ، التي تقدمت بفضل البحث والدرس الجدي لتاريخ تطور الافراد الموهوبين : دراسات غالتون « Galton » في انكلترا سنة ١٨٦٥ ، فأبان حقائق غريبة عن الرجال البالغين (اي الكاملي النمو) الذين فازوا بدرجات ممتازة في عملهم ، من قضاة وكتاب ، وساسة وعلماء ، ومصارعين ومغنين وغيرهم

ووجد أن لدى الفرد المتفوق او الموهوب ، عدداً اكبر من درجات الرقي تفوق نسبتُهُ ما ينتظر وجوده بالمصادفة عند بعض الافراد ، ممن اكتسبوا نوعاً من التفوق في النشاط أو التفكير مثلاً بالرّاضة والتدريب

واعتبر هذا دليلاً على ان الطاقات العقلية تورث ، وتشكّل بمرور الجدود ، كما هو واضح في الصفات الطبيعية

وعملت عدة تجارب واختبارات ، ودراسات لتاريخ العبقرية في الخمسين السنة الماضية ، فانبرى كاتل « Cattel » لدراسة العلماء الطبيعيين في المدة من (١٩٠٠ الى ١٩١٥) وأشباه هؤلاء لا بدَّ متصفون بميزات خاصة . فوجد ان ليس بينهم اولاد عمال او زراع ، وانما نشأ معظمهم في المدن ، بعكس ما كان يظن من أن كثرتهم من القرى . وقد نشأ كثرة العلماء القديرين في أميركا من بين أولاد الموظفين ولم يظهر من بين اشهر العلماء في انكلترا الذين درسهم « غالتون » حوالي سنة ١٨٧٤ من كان من سلالة عمّال الصناعات او الفلاحين . ووجد دوكاندول « De Candolle » أن بين مائة من أعضاء الأكاديمية العلمية باريس

عدد ٤١ من الاشراف والعائلات الثرية

وعدد ٥٢ من الطبقة المتوسطة

وعدد ٧ من العمال المخترعين — مع أن العمال هم غالبية السكان

ووجد أودن « Odin » أن من بين ٨٢٣ رجلاً فرنسيًّا ممتازاً في الآداب

عدد ٦٠ ٪ من ابناء الحكام وفيهم الأمراء

وعدد ١٣ ٪ من العائلات المخترعة

وعدد ١٢ ٪ من الاوساط التجارية

وعدد ١٥ ٪ من باقي السكان

ووجد إلِس « Ellis » أن من بين ٨٢٩ رجلا انكليزيًّا عبقريًّا

عدد ١٨٫٥ ٪ من الاشراف والأثرياء

وعدد ٤١٫٣ ٪ من طبقة المخترعين

وعدد ٣١٫٢ ٪ من التجار

وعدد ٦ ٪ من الزراع
وعدد ٥ر٢ ٪ من الصناع والتجار

***

هذه الدراسات وكثير غيرها توضح عكس ما كان يظن ويعتقد . ذلك ان التفوق النادر ، او نبل رجل من الطبقات الوضيعة درجة من الرفعة ، كفيل بأن يحيي ذكره ، ويرفع من مكانته الى حدّ بعيد ، بل لقد يُنسى كل ما عداه في أوساط مختلفة ، (لأن ذلك حادث خارق ولابدّ ان تكون لصاحبه منزلة عالية) . لذلك لم يكن غريباً ، أن نشأت الفكرة السائدة بأن أكثر العظماء نشأوا من الاوساط الوضيعة

(نشأة معاهد الموهوبين في البلاد الاخرى) قبل عام ١٩١٨ ظهر في المانيا وفرنسا وانكلترا ، أنهُ لم تبذل الا محاولات قليلة ، ومجهودات ضئيلة ساعدت على التقدم السريع للموهوبين او لخارقي الذكاء في المدارس الاولية

ومع ذلك ، عرف من تقرير شارلوتنبرج « Charlottenburg » أنهُ قد أنشيء قسم للاطفال الموهوبين في مدارس تلك المدينة قبل سني الحرب العظمى

وفي الممالك الاوربية ، التحق أطفال الطبقة الراقية بالمدارس الخاصة التي تدفع فيها أجور التعليم حتماً حيث يعدل منهج التعليم حتى يناسب مواهبهم . وتبعاً لما يعرف عن اختلاف طبائع الآباء في الاوساط الاقتصادية ، كان من الحقق ان توجد في أي وقت عقول موهوبة بين الاطفال الذين يتعلمون على نفقة الامة في تلك الممالك

وفي عام ١٩١٨ نشر في برلين وهامبرج وبرسلو ومانهيم وليبزج وفرنكفورت وجتنجن تقارير ايضاحية حائة على توجيه العناية الى الموهوبين الذين يعيشون في الريف ، ونادت بأن يبحث عن الموهوب وان يعلّم أينما وجد . وحيث ان علم النفس التعليمي نشأ نشأة قوية في المانيا فقد سهلت معرفة الاطفال الموهوبين بالاعتماد على اساليبه ، وفرزوا بسرعة وفق قانون منظم

أما في أميركا ، فقد نشأت المعاهد الخاصة بالموهوبين على شكل فرق ألحقت اولاً بالمدارس للاختبار وإجراء التجارب ، ففي عام ١٩١٨ شرع المجلس العام لادارة التعليم بمصروفات سنة للاختبارات بمدرسة الدكتور هوبيل في اربانا « Dr. Wingpole at Urban »

وفي الوقت نفسه ، عينت جمعية التعليم العام في مدينة نيويورك معلماً خصيصاً في علم النفس لدراسة الاطفال الموهوبين في مدرسة مان هاتان (Public School Manhattan) . وبعد ذلك بخمس سنوات ترعت الجمعية الخيرية بمبلغ كبير من المال لتعاون العمل التذكاري الذي قام به الدكتور تيرمان Dr. Terman في كاليفورنيا

وبعد هذا التاريخ حذت حذوها جامعات كثيرة أخرى في طول البلاد وعرضها ، وهذا عدا التجارب التي اجريت في كثير من المدارس الاخرى . وقد أحيط هذا المشروع بالصعوبات العديدة على نحو ما كانت حالة مدرسة الحامة التي أريد انشاؤها بمصر ولكن تغلب مؤيدو المشروع على المعارضين ، على أن المشروع نفسه لا يزال قيد الدرس والتجارب . أما في المانيا ، فلا يوجد ارتباك ما نظراً لتفوقها في المعلومات النفسية . ومما لا شك فيه ان طرق فرز الاطفال واختبارهم تختلف في بلد عنها في بلد آخر ، ذلك لأن افراداً مختلفين يقومون بالعمل ، فضلاً عن اختلاف طبائع البلاد وسكانها . ففي المانيا مثلاً اعتمدوا في عملية فرز الاطفال الموهوبين على اختبارات الذكاء ، واستعانوا ايضاً بشهادات المعلمين ، ووضع الأطفال في الفرق الاعدادية للمدارس العالية في مدى ثلاث سنوات ، وهي أقل من الوقت العادي المطلوب والمقرر فعلاً

أما في اميركا ، فانهم استعانوا بالتجارب العملية ، وفي سنة ١٩٢٢ وهب معهد Carnegie (كرنيجي) اعانة عن طريق مدرسة المعلمات بنيويورك ، لكي ييسر دراسة الأطفال الموهوبين في مدرستها باعتبارها تجربة في التربية ، واستمرت التجربة ثلاث سنوات في مدرسة عامة Public School وهذا عدا التجارب الأخرى التي أجريت في كثير من المدارس في مختلف الاماكن

أما ما أتفق على دراسة الطفل الموهوب فقليل جداً بالقياس الى المبالغ الطائلة التي أنفقت وتنفق على الطفل الخاجز او الشاذ

بهذه البيانات ، يتضح التوجيه العلمي الذي يجب ان يتجه اليه المعهد الذي أنادي باعادة النظر في انشائه للموهوبين لا للاستعراضيين . وأن الفرز السيكولوجي سيصل حتماً الى ما رمت اليه النسبة الصحيحة فلا يقابل المشروع باعتراض لا مسوّغ له

ثم ان ما أوضحتهُ من نشأة معاهد الموهوبين ، يدل على ان التدرج أفيد من الطفرة ، فلو أننا بدأنا مثلاً بتخصيص فرق للموهوبين في مختلف المدارس على ان يدقق في فرزهم دون محاباة او محسوبية ، لأستطعنا ان نجري تجارب مهمة ونقف على مقدار نجاحها بأنفسنا ، ولاستطعنا بعد ذلك ان ننشيء المعهد العظيم ، الذي يعتبر نواة لانقلاب علمي خطير ، كما يعد في سلالة عبد سعيد يشرق على ذوي المواهب ، الذين طالما حوربوا في مواهبهم ، وأهمل شأنهم . أما الفئات القليلة منهم الذين استطاعوا ان يشقوا طريقهم في الحياة ووضعوا أنفسهم في صف المباقرة الجديرين بهم ، انما تحملوا في سبيل ذلك من المكاره والاوصاب وبذل نشاط وجهد كان يمض بهم درجات أرفع لو توافرت لهم أسباب ظهور عبقريتهم بطرق وأسباب أسهل وأيسر . فهل يتحقق رجاؤنا ؟ هذا ما نأمله ان شاء الله ؟